وباء

في أيار/مايو ٢٠١٠، أتيحت الفرصة لدانا ساتشيتي لمرافقة بعثة من الوكالة إلى تنزانيا وكينيا. وكان هدف البعثة هو إجراء تقييم شامل لحالة السرطان في كلا البلدين.

«أفضِّل أن أصاب بالإيدز على أن أصاب بالسرطان»

١ أيار/مايو ٢٠١٠ – عبارة لا يمكن تصورها، ومع ذلك فهي عبارة كنت أسمعها خلال المحادثات طوال رحلتي التي التقيت فيها بمرضى السرطان في تنزانيا وكينيا.

فبعد أن كان السرطان يُعتبَر أحد أمراض 'العالم الغني'، أصبح كارثة تلوح في أفق الصحة العامة في جميع أنحاء شرق أفريقيا والعالم النامي. ومعدلات الإصابة بالمرض في ارتفاع في البلدان المنخفضة الدخل والمتوسطة الدخل. وليست لدى الناس إمكانية الحصول على المعلومات عن كيفية التعرف على العلامات المبكرة لأنواع السرطان المختلفة. وعادةً لا تكون لدى من يسعون للحصول على العلاج سوى خيارات قليلة. والدواء باهظ الثمن. والمرافق قليلة ومكتظة. ويتفاقم هذا التحدي من جراء الوصمات العديدة التي تلحق بالمصابين بهذا المرض.

قالت لي مريضة تم تشخيص حالتها في مستشفى كينياتا الوطني بأنها سرطان عنق الرحم: «لو كنت مصابة بفيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز، كنت سأعرف أن لديّ فرصة للكفاح ضد المرض على الأقل. فمضادات 'الفيروسات العكوسة' غير مكلفة ومتاحة بسهولة،

فريدريك إيكوتوا يبلغ من العمر ٤١ عاماً، وهو فخور بنجاته من السرطان، ويسكن خارج نيروبي. وهو يوضح قائلا: «أنا مدين بحياتي للأطباء الذين كشفوا سرطاني في الوقت المناسب».

الصور من: د. ساتشيتي/الوكالة

ويستطيع الناس التعايش مع هذا المرض. أما مرض السرطان فنحن – ببساطة – لا نعرف كيف يمكن النجاح في التعامل معه.»

أقدام على الأرض

٢ أيار/مايو ٢٠١٠ – دار السلام: مدينة تعج بالناس على ساحل المحيط الهندي في تنزانيا. مختنقة بحركة المرور. مكتظة بالناس. الحركة والحياة في كل مكان.

السرطان آخذ سبيله ليصبح بسرعة مشكلة كبيرة في أماكن مثل دار السلام. سيارات الميني باص وسيارات الأجرة التي تتجشأ الأبخرة الملوِّثة، والنظم الغذائية غير الصحية على نحو متزايد، والحياة الخاملة لسكان المدينة، كل هذه عوامل تؤدي إلى زيادة حالات السرطان في بلدان مثل تنزانيا.

ومما يزيد الأمور سوءاً أن هذه المدينة التي يسكنها ما يقرب من ٤ ملايين شخص لا توجد فيها سوى خيارات قليلة لعلاج السرطان.

ومع ذلك يمكن أن يرى المرء بصيص أمل على خط ساحل دار السلام الأخضر. فمعهد «أوشان رود» للسرطان (Ocean Road Cancer Institute) هو مستشفى صغير أنشئ قبل خمس سنوات لتوفير علاج السرطان الذي يحتاجه سكان تنزانيا حاجةً ماسة. وفي معهد «أوشان رود»، تتاح لمئات الناس يومياً إمكانية الاستفادة من أجهزة العلاج بالأشعة، والطب النووي، وأدوية العلاج الكيميائي، لمكافحة هذا المرض.

الالتقاء بموزني

٣ أيار/مايو ٢٠١٠ – كان معهد «أوشان رود» هو المكان الذي التقيت فيه بموزني أبو بكر هايبار، وهي أم لطيفة ورقيقة لأربعة أطفال. تبلغ موزني ما يقرب من ٤٠ عاماً من العمر، وهي من زنجبار – جزيرة كالجوهرة الخلابة تشتهر بشواطئها الجميلة وبوسط المدينة الحجري. وقبل نحو ثلاث سنوات، اكتشفت موزني وجود تورم في صدرها، وسعت سريعاً إلى العلاج الطبي. وتم تشخيص حالتها لأول مرة في معهد «أوشان رود» في عام ٢٠٠٨ بأنها مصابة بسرطان الثدي، وأُجريَت لها في ذلك الحين عملية استئصال جزئي للثدي، أو استئصالَ الورم. وتابعت موزني هذا العلاج مباشرةً بالعلاج الكيميائي، وكان يبدو من الاختبارات أن الأطباء أزالوا جميع الأنسجة السرطانية.

ولكن للأسف عاد السرطان بعد أشهر، حين بدأت موزني تشعر بألم عميق داخل صدرها. واختار لها الأطباء حينئذٍ استئصال الثدي بالكامل، مع دفعة جديدة من العلاج الكيميائي.

قالت لي موزني، وهي تشرح تجربة فقدان أحد الثديين في عملية جراحية: «اعتقدتُ حينها أنني بخير.» وأخبرتني موزني عن الخسائر التي سبَّبَها السرطان، ليس لجسدها وحسب بل لأسرتها كذلك. وبما أنه يلزم ركوب العبَّارة لمدة ثلاث ساعات للوصول إلى زنجبار من دار السلام، فقد كانت تفارق عائلتها لأسابيع في كل مرة أثناء الجراحة والعلاج الكيميائي والتماثل للشفاء.

وتحوّل كفاحها إلى الأسوأ مرةً أخرى عندما اكتشف الأطباء أن سرطانها انتشر إلى عمودها الفقري. وفي اليوم الذي التقينا فيه، بدأت في تلقّي العلاج الإشعاعي، وكانت لا تزال تبدو آملةً في الشفاء.

ناشئ

بقلم دانا ساتشيتي

وكانت البعثتان بقيادة برنامج العمل من أجل علاج السرطان التابع للوكالة، وتسعيان إلى جمع مقرري السياسات والأطباء والمنظمات الدولية معاً لبحث ما يمكن القيام به لمكافحة السرطان على الصعيد الوطني. وهذه هي القصة الشخصية لدانا عن لقاءاتها مع المرضى المصابين بالسرطان، والأطباء ومقدمي الخدمات الصحية الذين يعالجونهم، والإداريين الذين يضعون الاستراتيجيات لمكافحة هذا المرض.

الأطفال

٤ أيار/مايو ٢٠١٠ – كان من أكثر التجارب أثراً وعمقاً خلال الرحلة قضاء بعض الوقت في جناح الأطفال في معهد «أوشان رود». فالالتقاء وجهاً لوجه بصغار أوقفت مسيرة حياتهم مختلف أنواع السرطان أمر يحطم القلب. لكن ما أصابني بأكبر دهشة هو كيف أن العديد من الحالات كان يمكن تفاديه.

فقد كان من أعظم قصص النجاح في مجال علم الأورام في العقود الأخيرة النجاح في علاج سرطان الشبكية، وهو سرطان في شبكية العين يحدث عادةً في مرحلة الطفولة المبكرة. وفي البلدان المتقدمة النمو، تُلاحَظ علامات السرطان بسرعة ويُشفى أكثر من ٩٥٪ من الأطفال. فهذا النوع هو من أشكال السرطان الأكثر قابليةً للعلاج، لأن تدابير العلاج الكيميائي وغيرها من التدابير عادةً ما تسفر عن نتائج إيجابية.

ومع ذلك ففي تنزانيا وكينيا، يفتقر الأطفال والآباء والأمهات إلى المعرفة بهذا المرض، وليست لديهم إمكانية الحصول على الرعاية الصحية. ولذلك لا يسعون إلى العلاج إلا في مراحل متأخرة من هذا المرض، الأمر الذي يزيد من احتمال أن يكون المرض قد انتشر.

وقد أكدت هذه التجربة النقطة التالية: لن يكفي مجرد تنفيذ استراتيجيات علاج السرطان والرعاية الصحية القابلة للنجاح. ويجب أن تؤدي التوعية العامة والتثقيف بشأن السرطان دوراً قوياً في حفز الكشف المبكر عن المرض والفحص المبكر للأطفال والبالغين في جميع أنحاء المنطقة.

عارضات أزياء موانزا

٦ أيار/مايو ٢٠١٠ – سافرنا إلى موانزا في أعالي البلد، وهي ثاني أكبر مدينة في تنزانيا، للالتقاء بكبار الموظفين في مركز بوغاندو الطبي. والمستشفى، مثل الكثير من المستشفيات في جميع أنحاء شرق أفريقيا، مثقل بالأعباء وقليل الموظفين. وهو يخدم سكان المنطقة البالغ عددهم ١٤ مليون نسمة. وبسبب ندرة الخدمات الصحية في منطقة بحيرة فيكتوريا، يسافر العديد من المرضى مسافةً بعيدة إلى موانزا للعلاج، قادمين من البلدان المجاورة بوروندي وجمهورية الكونغو الديمقراطية وكينيا ورواندا وأوغندا.

وخلال العامين الماضيين اتخذ مستشفى بوغاندو الخطوات الأولى ليصبح المركز الثاني الذي يقدم خدمات علاج الأورام في تنزانيا. وبالتعاون مع الوكالة ومنظمة الصحة العالمية، تلقى الموظفون الطبيون تدريباً في جنوب أفريقيا وإيطاليا، وأنشئ سجل على نطاق المجتمع المحلي لمرضى السرطان وبدأ العمل به، ووُضِعت خطط لإنشاء مبان لإيواء معدات العلاج الإشعاعي.

سرطان الشبكية حالة يمكن علاجها، ولكن نسبة كبيرة من الأطفال في البلدان النامية يموتون بسبب نقص الوعي وعدم توافر إمكانية الحصول على الرعاية الطبية المناسبة. كان هذا الطفل يتلقى العلاج في مركز بوغاندو الطبي في تنزانيا. واحتمالات شفائه الكامل جيدة.

الصور من: د. ساتشيتي/الوكالة

وفي طريقنا إلى قسم الأورام، مررنا بجناح كانت توجد فيه مجموعة من النساء والأطفال تتحرك هنا وهناك في هدوء. وكانت بعض النساء جالسات على الأَسِرّة وبعضهن واقفات، ومعظمهن يتلقين الرعاية من سرطان الثدي وسرطان عنق الرحم.

وتم تعريف المجموعة بنا، وخلال دقائق، تحولت الغرفة من جناح لمرضى السرطان إلى استوديو للأزياء. فقد وقفت كل امرأة بفخر أمام كاميراتنا، تريد أن نصورها.

وأخذن في الصياح: «أنا أيضاً! أنا أيضاً!»، ونحن نتنقل داخل الغرفة، ملتقطين الصور لكل واحدة منهن في لحظات تعكس قوة حازمة وصراحة تامة تكشف عن صراعهن مع مرض السرطان. فقد كن يردن تقديم صورة لكل الناس عن معركتهن الخاصة، ولهذا السبب كانت تلك اللحظات من أكثر أجزاء الرحلة إثارةً للمشاعر.

يمكنك أن تشاهد مجموعة مختارة من صورهن في موقع الإنترنت: http://j.mp/aXDC7E

وللاطلاع على سرد كامل لهذه القصص، يرجى زيارة الموقع www.iaea.org/blog/cancer.

دانا ساتشيتي يعمل في شعبة الإعلام العام في الوكالة.
البريد الإلكتروني: D.Sacchetti@iaea.org